ما رأيت وما سمعت

في سورية ولبنان

— ٤ —

للاستاذ حبيب الزحلاوي

لا محيد للباحث في شؤون سياسة البلاد العربية التي قسمتها معاهدة سايكس — بيكو إلى مناطق نفوذ، وصيرت في تلك المناطق دويلات تنقصها أكثر المرافق الطبيعية، والخصائص الضرورية لقيام الدولة، أقول لا مناص له من الاطلاع على أغراض الدول الكبرى صاحبات الأطماع الاستعمارية والأغراض المتشابكة المتضاربة، خصوصاً أغراض الدولة البريطانية صاحبة النفوذ والسيطرة على هذا الشرق المبتلى بها. ولابد له أيضاً من الاسترشاد بالخطط التي وضعها أقطاب الاستعمار، والاستئناس برأي الصحيح الذي بسطه ويبسطه ساسة العالم سواء في مؤلفاتهم أو في مذكراتهم، وهي معروضة في المكاتب وفي متناول الكاتب والباحث والطلمة والمتطفل، ولأن من أوائل أغراض المستعمر إيقاف السواد الأعظم من المتعلمين من أبناء البلاد على أسرارهم ومقاصدهم التي هي كالبلاء النازل الذي لا مفر منه، كالقضاء المحتوم الذي لا مرد له، ولأن من أوجب واجبات الكتاب ومن إليهم من قادة الفكر والساسة المخترفين إيقاف الشعب على ما يحيط به من أمور وما يدبر له من شؤون، أما سياسة الدجال الشعب وخداعه وتضليله وتخدير أعصابه فهي سياسة ضارة كل الضرر، سيئة العواقب. وإن من أوائل ما يجب معرفته الآن، الآن فقط هو ما يأتي.

١ — أن الخطة التي رسمتها أطماع الإنجليز، بعد إجلائهم المنسوبين عن سورية ولبنان، والتي صيرت سورية ولبنان والعراق وشرق الأردن ودولة إسرائيل في أوضاعها الحالية، لم يبق لتنفيذها لتكون تامة كاملة سوى اعتراف الدول رسمياً بدولة إسرائيل.

٢ — أن الخطة الجديدة التي يضطلع بتنفيذها الجنرال كلايتون، ما زالت في دور المناورات، وستبقى تدور في محيط المحاولات حتى تزول الحوائل العسيرة التي تحول دون تنفيذها فوراً.

٣ — أن تلك الحوائل ليست سهلة كما يتوهم الناس استناداً إلى الصداقة الإنجليزية الأميركية، بل هي صعبة عسيرة بالنسبة لهذه الصداقة الأميركية الإنجليزية، وأن عسرها، ويسرها موقوف على قرب أو بعد الحرب المقبلة، المقبلة حتماً.

٤ — أن الحوائل سواء أكانت يسيرة أو عسيرة ستذلل قبل وقوع الحرب المقبلة، أما إذا رضي الشعب السوري أن يتغاضى عن الأميركان، وألا يلتفت إلى الأعيبهم، وأن يسير مع الإنجليز مدفوعاً مع عواطفه، وأن تتحد كلمة رجالاته وهيئاته على مد يدهم إلى العراق وإلى شرق الأردن ضارباً بالفوارق الأساسية والنظم القويمة لبناء الدولة، فعندها فقط تكون «سورية الكبرى» لا جمهورية سورية ولا عراقية، بل ذيلاً للمملكة العربية الهاشمية التي ربطت مصيرها بدولاب عربة الإمبراطورية البريطانية.

هذه هي الخطوة الاستعمارية الإنجليزية الجديدة التي سميتها تجوزاً خطة الجنرال كلايتون.

إذن هناك حوائل تحول دون ربط العراق والأردن بسورية فما هي تلك الحوائل؟

— لست أدري كيف أسمي تلك الحوائل أو العراقيل الأميركية ولا كيف أنعتها، لأنها أقرب إلى الأعيب الصبية منها إلى المناورات الدبلوماتية.

يقول الأميركان جهراً أنهم أبناء الإمبراطورية البريطانية البكر، وورثتها الشرعيون، وإن مصلحتهم التي قضت بوضع يدهم على بلاد اليونان والأتراك من جانب وعلى دولة إسرائيل والمملكة السعودية من الجانب الآخر تقضي أن تمتد إلى لبنان ليتم الاتصال من الجانبين. ويقولون ويجهرون بعدم رضاهم عن اتحاد عراق سوري أردني يعرض وضعهم الساحلي للخطر، ولهذا تراهم يعملون على إحباط خطة سورية الكبرى عملاً بمثل المساعي التي يبذلها الجنرال كلايتون وأعوانه على النقد والمثل، يسخرون رجالاً كرجاله من سورية ولبنان والعراق منهم المسلم السني

والشيعي والمسيحي الموراني والكاثوليكي والأرثوذكسي، والدرزي واليهودي أيضاً.

هذا هو الواقع الذي رأيته ولمسته وسمعته، ولكني برغم ذلك أعتقد أن الأميركان لا يعملون أي عمل سياسي أو غير سياسي بغير حلفائهم الإنجليز، وكذلك لا يعمل الإنجليز عملا انفراديا بدون حلفائهم الأميركان. وأكبر ظني أن تلك الألاعيب إنما هي إلا ضحك من السوريين، وان الغرض منها أبعد كثيراً من غاية الضحك نفسها، وقد ألمس الحقيقة أو أدنو منها إذا قلت إن الغرض الحقيقي هو إظهار العرب بمظهر غير الكفؤ لإدراك معاني الحياة الديمقراطية، وتقدير المسؤولية الاجتماعية، وجهل السياسة إطلاقا.

سميت حوائل الأميركان ألاعيب صبيان، ويحسن أن أسميها ألاعيب أميركانية على الطريقة الأميركية وإلى القارئ مثلا أورده للتسلية والترفيه.

للبنانيين والسوريين جاليات موزعة في جميع أنحاء العالم هاجرت منذ زمن بعيد، واستقر بأكثرها النوى في أميركا بلاد الاجتهاد والمغامرات والكسب، وقد صار لها فيها نشاط اقتصادي ملحوظ، ومكانة في التجارة محترمة، وسمعة في الأخلاق طيبة. ولكن هاتيك الجاليات، وعددها في ولايات أميركا المتحدة وغير المتحدة أكثر من عدد سكان لبنان، برغم البعاد البعيد، والمسافات الشاسعة الفاصلة، تحن دائماً أبداً إلى الوطن وساكنيه، لا تألو جهداً في إمدادهم بالمال والمونة، كلما دعاها داع وطني أو قومي، أو استنجد بها مستنجد، حاكم أو هيئة أو راع ديني.

من هذه الجاليات، ولأول مرة في تاريخ الهجرة، قيل لنا بلسان الصحافة اللبنانية في الوطن والمهجر إن جمعيات لبنانية سورية، عددها حوالي الأربعين عقد رؤساؤها الأفاضل، مؤتمراً عاماً في نيويورك أطلقوا عليه اسم «الأحلاف السورية اللبنانية لولايات أميركا الشرقية» قرروا فيه دعوة إخوانهم الأعضاء لزيارة الوطن والأهل.

لبى الدعوة نحو من ألف سيد وسيدة، منهم الثري واسع الثراء، ومنهم المتوسط الحال، وأكثرهم من المتقاعدين عن العمل، وفيهم الصبي اليافع والفتاة الناضجة.

رحبت الحكومتان اللبنانية والسورية بالفكرة وتبنتاها، واتفقتا على تسمية هذا الحجيج الأول «بمؤتمر المغتربين» ونظمتا برنامجاً للاحتفال بالمغتربين أضياف الحكومتين وقد رصدتا لهم مبلغاً من المال وفراً ينفق بسخاء على إخواننا وأبنائنا «العائدين برؤوس أموالهم الضخمة يستثمرونها في بناء المصانع والمعامل وإحياء أرض الوطن».

لبيت أنا الدعوة، فلمست الذوق اللبناني الرفيع يتجلى في الدعوة التي أقامها البنان في «عاليه»؛ وتذوقت السخاء العربي والأنس البهيج في الحفلة التي أقامتها سورية في متحف آل العظم بدمشق، ورافقت المغتربين وحضرت أكثر الاحتفالات والاجتماعات والدعوات والزيارات المدبرة، وسعدت بلقاء إخوان وأصدقاء ومعارف لم يكن يخطر ببالي أن سألقاهم بعد أن فرقت بيننا سبل العيش، وانتبهت إلى سماع ردود المغتربين على أسئلتي ودونتها في مذكراتي، ووعيت أقوال الخطباء من أركان الحكومتين السورية واللبنانية، وتيقظ ذهني لكل كلمة وردت في خطاب رئيس المغتربين، وعنيت بعض العناية بما نشرته أكثر الصحف. ولما عدت إلى نفسي وذاكرتي، وقفت حيران لا أدري كيف تكون المقارنة بين أقوال الداعين والمدعوين، ولا كيف السبيل إلى التوفيق والتوحيد بين من يرثي السهى فأريه القمر!

لقد رحب لبنان رسمياً «بالمغتربين العائدين بأموالهم يستثمرونها في إحياء أرض الوطن» ورحبت سورية بابنائها «الذين غادروا البلاد عندما كانت تئن تحت وطأة الحكم الأجنبي ... ولم ينسوا أهلهم أيام محنتهم وجهادهم للاستقلال.. بل أمدوهم وأعانوهم وشاركوهم بالألم والأمل» وهي تعترف لهم بلسان رئيس الوزراء «بنصيبهم من أسباب الحياة القومية المتقدمة» ويدعوهم «مع المحافظة على ولائهم لأوطانهم الجديدة، إلى أن يبقوا صلتهم بالوطن قوية فعالة لخير المشترك والمصلحة الشاملة... لتكون مؤدية لما تنشدون وننشد من دعم نهضة وتوطيد محبة وأخوة».

أما الخطاب الذي ألقاه رئيس مؤتمر المغتربين في الجامعة السورية بحضور رئيس الجمهورية ووزراء من سورية ولبنان،

وعدد من أعضاء الجمعية التأسيسية ومن هيئات تمثل جميع الطوائف والأعيان وسفراء الدول كان خطابا جامعا لتاريخ الهجرة ، وجهاد المهاجرين ، وما عملوا وما أفادوا وكيف تطوروا فصاروا شركاء مع الأمريكان فى الحياة الديمقراطية ، وتعريفها « أنها فى جوهرها طريقة فى الحياة أساسها الإيمان الوثيق بقيمة الفرد وكرامته » ثم أخذ يشيد بتقدم سورية العظيم فى نهضتها الاقتصادية والعمرانية ، وأنها « موضع فخرنا وثقتنا بإخلاص الشعب السورى لقضية بلاده » وقال :

« كلنا يعلم أن فى الاتحاد قوة . . . ونحن متأكدون أن شعبى سورية ولبنان وزعماءها سينهجون سياسة تعاون مستمر بين البلدين . . لأن سلامة أى منهما متعلقة بالآخر »

انتقل الخطيب إلى موضوع آخر وهو ما ألفت نظر القارئ إليه قال مانصه :

« ومنذ أمد وجيز تألف اتحاد إقليمى يضم سائر الأحلاف فى الولايات الأمريكية . . ولى وطيد الأمل أن تكون اجتماعاتنا هذه فى سورية ولبنان بما تضمه من مندوبين عن المهاجرين فى مختلف أرجاء العالم ، « خطوة تمهيدية لتشكيل منظمة دولية لكافة المغتربين » . . « ومؤتمرنا المنعقد فى سورية ولبنان قد أتاح لنا فرصة نادرة لتوطيد العلاقات الوثيقة بين الأمم ، وخاصة بين الولايات المتحدة وسورية ولبنان » . . « والمهم فى الأمر هو أن نكون بعملنا هذا ، أداة فعالة فى وضع الأسس لمشاريع أخرى فى المستقبل تساعد على نشر التفاهم وحسن النية مع شعوب العالم »

تلفت حولى أسأل نفسى عن المراد بتشكيل منظمة دولية لكافة المغتربين وما الغرض منها ؟ وعن سنوح الفرصة النادرة لتوطيد العلاقات بين الولايات المتحدة وسورية ولبنان ، وكيف تتطور العلاقات بينهما وبين الولايات المتحدة وهى تناصر اليهود وتشد أزرهم على عرب فلسطين الذين نزعت بلادهم منهم وطردوا منها ؟ وعن كيف تكون جمعيات المهاجرين أداة فعالة فى وضع الأسس لمشاريع تساعد على نشر التفاهم وحسن النية بين شعوب العالم ، وأى عالم هذا الذى ليس بينه وبين سورية ولبنان تفاهم وحسن نية غير دولة إسرائيل ربيبة رومان وشعب الم شعث ؟

رددت لو أستمين بمن تمرنوا على قراءة ما بين السطور أو ألفوا التعابير المرنة والصياغات المتنوعة المعنى الواحد ، ولقد كنت استعنت بسواى من غير تردد لو أن حكومة أميركا هى القائلة هذا القول بلسان واحد من رجالها ، ولكنى تذكرت قول الصديق الكريم أحمد رمزى بك فى رجال يرددون ما يلقنون تلقينا ، وليس ببعيد أن يكون هؤلاء من أولئك .

تمت زحلة موطن أجدادى للاستجمام والراحة ، وإذا بى أتلقى ساعة وصول دعوة من شخصية رسمية لبنانية كريمة إلى حضور مؤتمر لبنانى يضم جميع رؤساء الجمعيات التى كونت مؤتمر المغتربين لم أستغرب الدعوة بل استغربت اجتماع هؤلاء الرؤساء فى مدينة زحلة وبرنامج الاحتفالات فى سورية لم يتم بعد !

لبيت الدعوة ونفسى تحدثنى بوقوع مفاجأة مسرحية تحل عقدة الرواية .

سمعت خطبا عدة كلها إشادة بالعبقرية اللبنانية وسمعت رئيس المؤتمر يشرح لرؤساء الجمعيات معانى الجمل التى وردت فى خطابه وكيفية تفسيرها ، ورأيت الأستاذ سعيد عقل الشاعر المعروف بألمعيته وجرأته ، يقف فيرتجل خطابا حمل فيه حملة شعواء على أولئك الذين يلعبون بعبقريات الرجال لعب القط بالفار ، وعلى دولة إسرائيل التى لاحد لأطماعها وتوسع دولتها ، وعلى الدولة العاتية التى تريد أن تغرر بنا باسم النصرانية والإسلام وهى لا تحترم العرب ولا تقدر نهضة الشرق ويقول ، إن كتابا قد أتم تأليفه سينشره قريبا ، وعندها يعلم الأميركان أى إثم يجترحونه فى إضعافهم العرب وتقوية اليهود ، وأى جريمة اقترفوها فى فلسطين .

لقد وجم الحاضرون وسكتوا احتراما لمكانة الخطيب الشاعر ابن زحلة المحبوب .

لا داعى إلى ذكر ما حدث بعيد خطاب الأستاذ عقل وارفضاض المؤتمر ، وما أوردت هذه الخلاصة المقتضبة إلا لأظهر العقلية الأميركية الطفلة كيف تلعب بعقليات وعبقريات الرجال الطفلة أيضا على طريقتها الأميركية ، وهى تلعب فى سورية كما تلعب فى لبنان وبالمهاجرين أيضا .

حبيب الزحلاوى